﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ
قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

[الصافات: 99 - 102]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن مَشاهِدِ الابتِلاءِ مَعَ القَومِ إلى مَشاهِدِ الابتِلاءِ مَعَ الوَلَدِ

لمّا بَيّنتِ الآياتُ السّابقةُ صنيعَ إبراهيمَ ﷺ بالأصنامِ، وكيفَ أنّه أرادَ الانتصارَ بذلكَ للّهِ تعالى، وكيفَ جازاهُ اللّهُ بإنجائِه من النّار، وجعَلَهم الأسفَلينَ، فاكتَملَ فَضلُ اللّهِ لإبراهيمَ بالإنجاءِ مِنَ النّار، ناسَبَ بيانُ ما بعدَ ذلكَ الحدَثِ العظيمِ مِن أحداثِ دَعوةِ التّوحيدِ، حيثُ أمرَهُ اللّهُ باعتزالِ قومِه والهِجرةِ عنهم، فذَكَر في هذهِ الآياتِ امتِثالَه لذلكَ، وهِبةَ اللّهِ لَهُ الوَلدَ، ثُمّ دُخولَه في امتحانٍ آخَرَ في ولدِه، بعدَ امتِحانِه معَ قومِه وكِفاحِه مَعَهُم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَلِيمٍ﴾: أصْلُ الحِلْمِ - بِكَسْرِ الحاءِ -: التَّأَنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أيْ: تَأَنّى وصَبَرَ ولَمْ يَتَعَجَّلْ. ويَأْتي الحِلْمُ بِمَعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[1]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أيْ: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ. والحَليمُ: الَّذي لا يَسْتَخِفُّهُ عِصْيانُ العُصاةِ، ولا يَستفِزُّه الغَضَبُ عَلَيْهِم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شَيْءٍ مِقْدارًا[2]، ومِن مَعانيهِ أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[3]، وضِدُّهُ: العَجَلَةُ، والجَهْلُ، والسَّفَهُ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(3) ابن سيده، المخصّص: 1/ 251، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).

2) ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾: الجذر (سعي) وهو المشي السّريع، وهو دون العدوّ، ويُستَعمل للجدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثر ما يُستَعمل السَّعْيُ في الأفعال المحمودة، وخُصَّ المشي فيما بين الصَّفا والمروة بالسَّعي، وخُصَّت السّعاية بالنميمة، وبأخذ الصَّدقة، وبكسب المكاتب لعتق رقبته، والمساعاة بالفجور، والمسعاة بطلب المكرمة والمقصود بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ هنا: أدرك ما سعى في طلبه[1].

3) ﴿ٱلۡمَنَامِ﴾: الجذر (نوم)، وهو استرخاء أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل: هو أن يتوفّى الله النّفس من غير موت، وقيل: النّوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل، ورجل نؤوم ونُوَمَة: كثير النّوم، والمَنَام: النّوم، وهو المقصود هنا[2].

4) ﴿أَذۡبَحُكَ﴾: (ذبح) أصلٌ يدلُّ على الشَّقِّ[3]، فالذَّبْحُ: شَقُّ حَلْقِ الحيوانات[4]، ويُقالُ: ذَبَحْتُ فأرةَ المِسْكِ، أيْ: شقَقْتُها، تشبيهًا بذلكَ، وتُسمَّى الأخاديدُ مِنَ السَّيلِ مَذابحَ[5]، والمقصود بـ ﴿أَذۡبَحُكَ﴾: أُمِرْتُ بذبحك[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المِنَحُ في خَبايا المِحَنِ والعَطايا في خَفايا البَلايا

يُبيِّن هذا المَقطعُ القرآنيُّ من قِصّةِ إبراهيمَ الخليلِ، ما آلَ إليهِ عليه السلام بعدَ ذلكَ الابتلاءِ الَّذي وقَعَ فيه معَ قَومِه فنجَحَ، إذ أمرَه تعالى بهَجْرِ قَومِه، فذهَبَ حيثُ أُمِر، فذَهبَ إلى بلادِ الشّام، ثُمّ دعا ربّه في الأرضِ الجديدةِ، وقال: يا ربّ، ارزُقْني ولدًا صالحًا يكونُ لي عَونًا وعِوَضًا عن قَومي في الغُربة. فاستَجبْنا لَهُ دعوتَهُ فأخبرْناه

(1) الراغب، المفردات، ص: 411.
(2) الراغب، المفردات، ص: 830.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذبح)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (ذبح).
(4) الراغب، المُفرَدات: (ذبح).
(5) السمين، عُمدة الحُفّاظ: (ذبح).
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 407.

بِما يَسُرُّه، حيثُ بشّرناهُ بولدٍ يَكبَرُ، ويَصيرُ حَليمًا، وهذا الولدُ هو إسماعيلُ ﷺ. فلمّا شَبّ إسماعيلُ، وأدرَكَ سعيُه سعيَ أبيهِ، رأى أبوهُ إبراهيمُ رُؤيا، ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ، قال إبراهيمُ مُخبِرًا ابنَه عن فَحوَى هذه الرُّؤيا: يا بُنَيَّ، إنّي رأيتُ في النَّومِ أنّي أذبحُك، فانظُرْ ما تَرى في ذلكَ، فأجابَ إسماعيلُ أباهُ قائلًا: يا أبي، افعَلْ ما أمرَكَ اللّهُ بِه مِن ذَبحي، ستَجِدُني بمَشيئةِ اللّهِ مِن الصّابرينَ الراضينَ بِحُكمِ اللّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودَلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ عطفٌ على جملةٍ مقدّرةٍ مستأنَفة؛ أيْ: (فخَرجَ مِن النّار سالمًا، وقال إنّي ذاهبٌ إلى ربّي)[2]، والعطفُ يَظهَرُ أنّه من عطفِ الحدَثِ على الحدَثِ في القصّة الواحِدة، فلمّا ذَكرَ الحدَثَ المُتعَلِّقَ بتكسيرِ الأصنامِ، عَطفَ حدَثًا آخَرَ وهو الذَّهابُ والهِجرةُ لِعبادةِ اللّهِ وحدَه، والحدَثانِ المُتعاطِفانِ متعَلِّقانِ بقصّةٍ واحدةٍ وهي قِصّةُ إبراهيمَ ﷺ.

بَعدَ المُكابَدةِ يأتي الإيواءُ إلى الرُّكنِ الشَّديدِ

بلاغةُ التّوكيد:

تصديرُ الجُملة بتأكيدِ (إنّ)، مع التَّعبير بالاسميّة دونَ الفِعليةِ؛ وذلكَ لتحقيقِ مضمونِ الجُملة، والعنايةِ بمعناها؛ إذْ معناها أن يَعتَنيَ العبدُ بتصحيحِ قصدِه إلى اللّهِ، وتحقيقِ نيّتِه إليه سُبحانَه على أكملِ وجْهٍ في ثِقَةِ القَلبِ، وأوفى ذِكْرٍ في مَنطوقِ اللِّسانِ، فالتّأكيدُ هو تأكيدُ القائلِ مَضمونَ القَولِ لنفسِه، لحثِّها على العملِ، وتنشيطِها على الاستمرارِ.

تـوكـيـدُ الـقـائـلِ لـنَـفـسِـه لـحَـثِّـهـا عـلـى الـعَـمـلِ وتَـركِ الكسَلِ

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 419، ومركز تفسير، المختصر في التّفسير، ص: 489.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 160.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ذَاهِبٌ﴾:

الذَّهابُ مُتاركةٌ تامّة ومُفارقةٌ كامِلةٌ

جاءَ التّعبيرُ بلَفظِ الذَّهابِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَاهِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على الانتقالِ بالحالِ والبدَنِ إلى مَوضِعٍ غيرِ مَوضِعِ قومِهِ، فالذّهابُ: (انتقالٌ وزوالٌ وإزالةٌ)[1]، انتقالٌ وتحوّلٌ في القصدِ والنّيّةِ والبدَنِ، وزوالٌ عن المكانِ بالهِجرةِ مِنه، وإزالةُ الأبدانِ مِن مَواقِعِ الأعداءِ وإزاحتُها عن أوطانِ السّوءِ، وهذا كلُّه حصَل لإبراهيمَ ﷺ، بذَهابِهِ مُهاجِرًا من أرضِ العِراقِ إلى أرضِ الشّامِ.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

مَن وُفِّقَ لتحقيقِ القَصدِ، فقدْ أوشَكَ أن يَصِل

عُدّيَ اسمُ الفاعِلِ بحَرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ لِدُخولِه على مُنتهَى الغايةِ، وهو اللّهُ سُبحانَه، ولو أدخَلَه على الوسيلةِ، لعَدّاه بالباءِ؛ أيْ: (ذاهبٌ بعبادتي وديني)، ولكنّه حَذَف الزّادَ الموصِّل إلى الغايةِ؛ للدّلالةِ على شِدّة قربِه ﷺ وضمانِ الوصولِ. وللإشارةِ إلى أنّ العبدَ بمجرّدِ انعقادِ القصْدِ يبلُغُ، فالقَصدُ هو أصْلُ الوسائلِ إليهِ، والقصدُ مشمولٌ ومتحقِّقٌ ومؤكَّدٌ في معنى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾.

نكتةُ تقديمِ الغايةِ على الوسيلةِ:

مَن قَصدَ اللهَ في النّيّةِ ألهَمَهُ الهدايةَ في الأعمالِ

قُدِّم ذِكرُ الغايةِ وهو الذَّهابُ إلى اللّهِ تعالى، على الوَسيلةِ وهي الهدايةُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ للإشارةِ إلى نُكتةٍ بديعةٍ، وهيَ أنّ العَبدَ يذهَبُ إلى اللّهِ أوّلًا بقَصدِه، ثُمَّ يُلهِمُه اللّهُ الزّادَ والوسيلةَ مِنَ العباداتِ والهداياتِ، ولذلكَ قال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فجَعَلَ الهدايةَ للعِبادةِ والإحسانِ وإلى غيرِ ذلكَ مِن الوسائلِ مُؤخَّرا عن الغايةِ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ ليَدُلّ على أنّ الوسائلَ إليهِ، إنّما هي مِنه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذهب).

بَلاغةُ المَجازِ بينَ الإرسالِ والحَذفِ:

اللهُ مِنْ وراءِ كلِّ قِبلةٍ وقَصْدٍ

في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ جَعَلَ الذّهابَ إلى الأرضِ والمَكانِ ذَهابًا إليهِ سُبحانَه؛ مُبالَغةً في الامتِثالِ وتعظيمًا لشأنِ المأمورِ، حيثُ أطلَقَ الآمِرَ، وأرادَ المأمورَ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا لعَلاقةِ الأيلولةِ، فذَكَرَ المَآلَ وأرادَ المَكانَ، ولمّا كانَ الذّهابُ إلى العِبادةِ ومَوضِعِ الهِجرةِ والاعتِصامُ بالدّينِ أعمالًا تَؤولُ إلى غايتِها عندَ اللهِ، جَعَلَ الذّهابَ والتوجُّهَ إلى مَآلِ سَعيِه وهو اللهُ سُبحانَهُ[1]، فذَكَرَ المَقصِدَ الخِتاميّ، لِأنّ جَميعَ الأعمالِ مَنوطةٌ به.

ويصِحّ أن يكونَ التَّركيبُ على تقديرِ مُضافٍ؛ أيْ: (ذاهبٌ إلى مأمورِ ربّي) أيْ: (إلى حيثُ أمرَني أن أذهَبَ). لكنّ تقديرَ المُضافِ يُفَوّتُ وجْهَ المُبالَغةِ[2]، فيكونُ مَجازًا بالحَذفِ.

بلاغةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ علَى الألوهيّةِ:

لا خـــذلانَ ولا حِرمانَ في وُجودِ الرَّبِّ الرَّحمنِ

جاءَ ذِكرُ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، ولَم يَقُل: (إلى اللهِ)؛ لتطمينِ نفْسِه ﷺ بسابِقِ الإحسانِ عليهِ، وعادةِ ربّه معَه، ولإظهارِ مَعنَى الطّمَعِ، كأنّه حينَ يقولُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، يقولُ: (ذاهبٌ إليه طامِعٌ في تحقيقِ قَصدي مِنه)، ويكأنّ التَّعبيرَ بالرُّبوبيّةِ تَمهيدٌ للجَزْمِ والتَّوكيدِ في قولِه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فهو يُمهِّدُ للقَطعِ في حُصولِ الهدايةِ، بذِكرِ الرُّبوبيّةِ، وإضافتِها إلى ضميرِه، ﴿رَبِّي﴾؛ أيْ: (ربّي الَّذي أحاطَني بألطافِ رُبوبيّتِه فَلا أخافُ معَ تِلكَ الإضافةِ خِذلانًا أو ضَياعًا). ولذلكَ قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: 81]، وأيضًا: الرُّبوبيّةُ مُقتضاها التَّدبيرُ، وهو الآنَ مُحتاجٌ إلى مُدَبِّرٍ يُدَبِّره إلى ما فيه مَصلحتُه، فقالَ: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[3].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(3) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 222.

نُكتةُ إضافةِ لَفظِ الرُّبوبيّةِ إلى الضّميرِ:

كـلُّ يَـأوي إلى مَن يَنتَسِبُ إليهِ ويَتوكَّلُ عليهِ

أُضيفَ لَفظُ الرُّبوبيّةِ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، للتّعطُّفِ والتّحنُّنِ؛ لأنَّ الرُّبوبيّةَ المُضافةَ إلى ضميرِه هي الرُّبوبيّةُ الخاصّة؛ يَعني: (إنّي ذاهبٌ إلى الرَّبّ الَّذي أرجو مِنه أن يَهديَني ويَدُلّني على الخَير)[1]، وفيه بيانُ الانتِسابِ الحقيقيِّ للمُؤمِنِ، فإذا ذَهَبَ قومُه إلى أصنامِهم، فهو ذاهبٌ إلى ربِّه، وشتّانَ بينَ الذّاهبَينِ، والمَقصودَين.

بلاغةُ الجُملةِ الفِعليّةِ ومَوقِعُها:

ربـطُ الأفـعـالِ بِعِلَلِها خِطابٌ مُـقنِعٌ للباطِلِ مُقشِعٌ

الجُملةُ الفعليّةُ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ هي استئنافٌ بَيانيٌّ، كأنّ حالَهُ أثارَ في ذِهنِ سامِعِه سُؤالًا: (كيفَ تَضمَنُ لنَفسِكَ تَحقيقَ قَصدِكَ؛ وأنّى لكَ بذلكَ في أرضٍ جديدةٍ لم تَعهَدْها؟) فأُجيبَ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾. والجُملةُ على هذا تَعليليَّةٌ لقولِه تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ كأنّه قيل: (إنّي متوجّهٌ إلى ربّي؛ لأنّه سيهدين)[2]، فهو ربطٌ للأفعالِ الظّاهرةِ بالعِلَلِ الباطِنة.

نُكتةُ دُخولِ السّينِ على الفِعلِ:

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ تدُلّ على تأكيدِ الحُدوثِ في المُستقبَل، معَ القُربِ في الاستقبال[3]، وهي تدلُّ على شدّةِ ثِقتِه باللّهِ تعالى وأنّها قريبةٌ مِنه لا بعيدةٌ.

مَوقِعُ جُملةِ النّداءِ بعدَ جُملةِ الإخبارِ:

الـهـداياتُ بَريدُ الهِباتِ والهِباتُ بِـدايـةُ رَفـعِ الدّرجاتِ

جُملةُ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مِن تَمامِ قولِه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فإنّه بَعدَ أن أخبَرَ أنّه مُهاجِر، استَشعَرَ قلّةَ أهلِه وعُقمَ امرأتِه، وثارَ ذلك الخاطِرُ في نفسِه عندَ إزماعِ الرّحيلِ؛

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 222.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 260.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 292.

لأنّ الشُّعورَ بقِلّةِ الأهلِ عِندَ مُفارَقةِ الأوطانِ يَكونُ أقوَى؛ لِأنّ المَرءَ إذا كانَ بَينَ قَومِهِ كانَ له بعضُ السُّلْوانِ بِوُجودِ قَرابتِهِ وأصدقائِهِ. فكأنّ المَعنى: (وقال إنّي ذاهبٌ إلى ربّي، وقال ربِّ هَبْ لي مِن الصّالِحينَ)، وقَولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ - على وجْهٍ - بينَ مَقولِ القَولِ الأوّلِ ومَقولِ القَولِ الثّاني المُقدَّر بِجُملةِ النّداءِ وجوابِه؛ أيْ: (قالَ يا ربِّ هَبْ لي)[1].

نوعُ اللّامِ ودَلالتُها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿هَبْ لِي﴾ للاختِصاصِ؛ أيْ: (خُصَّني يا ربِّ على سبيلِ الهِبةِ مِنكَ بِوَلدٍ صالحٍ)، والاختِصاصُ مُشعِرٌ بشَديدِ الحاجةِ، والطّمَعِ بالكَرَمِ.

علّةُ حَذفِ مَفعولِ فِعلِ الهِبةِ:

دُعاءُ الأصفياءِ يَخلو مِنَ الإطنابِ والتّفصيلِ

حُذِفَ مفعولُ فِعلِ الهِبةِ في قولِه تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والمَعنى: (هب لي غلامًا)، فحُذِف المَعمولُ؛ لتمحيضِ الدُّعاءِ في كونِه مِن الصّالحين، ولِدَلالةِ الهِبةِ عليه؛ فإنّها في القرآنِ وكلامِ العَربِ يغلِبُ استعمالُها مع العُقَلاءِ في الأولادِ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: 53] فمِن غَيرِ الغالبِ، لِأنَّ المُرادَ بها هِبةُ نُبوّتِه، ويدُلّ على المَعمولِ المَحذوفِ قولُه تعالى بعدَه في اللّاحقِ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ فإنّه ظاهرٌ في أنّ ما بُشِّر به إبراهيمُ هو عينُ ما استوهَبَهُ مِنَ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كأنّ المعنى: (رَبّ هب لي غلامًا من الصالحين، فبشَّرناه بذلكَ الغُلامِ الّذي طلَبَه مِن اللّه هِبةً له)[2]؛ فالحذفُ لِدَلالةِ مَعهودِ الاستِعمالِ القُرآنيِّ عليه، ولِأنّه مُشارٌ إليه في السّياقِ، ولِأنّ الطَّلَبَ بعدَ الهِجرةِ مُشعِرٌ بذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 148، وصافي، الجدول: 12/ 74.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 122.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ الهِبَة:

جاءَ استِعمالُ مُفرَدةِ الهِبةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ليَدُلّ على أنّه يرجو مطلوبًا لا سَبيلَ له إليهِ مِن طريقِ الأسبابِ الاعتياديّة، فابتَغَى مِن ربِّه إيصالَ ما لا طاقةَ له به، إلّا بتيسيرٍ مُعجِزٍ مِن لَدُنْهُ سُبحانَه[1]، وقد شاعَ استعمالُ مُفرَدةِ الهِبةِ في طلَبِ الأولادِ في القرآنِ الكريم، فهَبْ مَحضُ هبةٍ من اللّه تعالى، لا قُدرةَ للعَبدِ عليها إلّا بتوفيقٍ منه ورَحمةٍ وإرادةٍ.

التّعلُّقُ باللهِ مِن طريقِ الوَهّابِ لا مِن طريقِ الأسبابِ

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيانيّةٌ للحالِ المُبهَمَةِ للنّوعِ؛ أيْ: (ولدًا شأنُه الصّلاحُ، وأنْ يكونَ في قابِلِ أيّامِه مَعدودًا في الصّالحين).

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

(ال) في لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مَوصولةٌ، فهيَ في معنى: (الَّذين صلَحوا)، وهذهِ إذا دخلَتْ على الوَصفِ المُشتَقِّ كاسمِ الفاعلِ، أفادتِ الكمالَ في الوَصفِ؛ أي: (المتحقّقينَ بالصّلاح)[2]، ولذلكَ لَم يكُن طلَبُه للوَلدِ فحسْبُ، بل للوَلدِ المتّصِفِ بالصّلاح، وهذا فقهٌ في الدُّعاءِ عَجيبٌ، أن يطلُبَ العبدُ مِن اللّهِ تعالى الصّالحَ مِن الذُّرّيّة دونَ أن يَذكُرَ الذُّرّيّة.

الولدُ الصّالحُ خَيرُ عطاءٍ ولذلكَ كانَ مَسؤولَ الأنبياءِ

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرّابِطةُ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ عطفٌ على مُقدّرٍ لازمٍ عن الجُملةِ الدّعائيّة في قولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أيْ: (فتسبّبَ عن دعائِه وترتّبَ عليه استجابتُنا له، فبُشّرناه بغُلامٍ صالحٍ حليمٍ)، فدُخولُ الفاءِ للتّفريعِ على الدّعاء[3]،

التّعقيبُ بالبُشرَى بعدَ الاستجابةِ فَوريّ، والتّعقيبُ بالبُشرَى بَعدَ الدّعاءِ نِسبيّ

(1) الرّاغب، المُفرَدات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وهب).
(2) حاتم جلال التّميميّ، (ال) التّعريف الدّالّة على الكمال، ص: 23.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 261، والجَمل، حاشية الجمل: 3/ 546، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 161.

وفي العطفِ بها دونَ غَيرِها إشارةٌ إلى سُرعةِ استِجابةِ المَولَى الكريم لِدُعاءِ الخليلِ ﷺ، فتُفيدُ التَّعقيبَ الفَوريَّ على الدّعاءِ بالاستجابةِ والتّحقيقِ، والتعقيب هنا ليس نِسبيًّا؛ لأنّ الفاءَ في: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾ فَصيحةٌ معطوفةٌ على مُقدَّرٍ مَحذوفٍ، على مَعنى: (فاستجَبْنا له، فبشَّرناه)، ولا ريبَ أنّه بِمُجرّدِ الاستجابةِ حصَلَ التَّبشيرُ، فالتَّعقيبُ بالبُشرى بعدَ الاستجابةِ فَوريّ، والتَّعقيبُ بالبُشرَى بعدَ الدّعاءِ نِسبيّ؛ لِأنّ الاستِجابةَ تَتخلَّلُهما.

نوعُ الباءِ ومَعناها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ﴾ على بابِها مِنَ التَّعديةِ، ولا يَنفَكّ معنى الإلصاق عنها؛ أيْ: (بشّرناهُ بُشرى مُلتصِقةً بخَبرِ الغُلام).

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المَولودِ بالغُلامِ:

الإيماءُ إلى شأنِ الغُلامِ عِندَ بُلوغِه

جاءَ التَّعبير عن المَولودِ بالغُلام في قولِه تعالى: ﴿بِغُلَامٍ﴾؛ ليدلّ على أنّه ذكَر، وأنّه في غايةِ القوّة الّتي ينشَأ عنها الغِلْمَة، وهي الشدّة والحدّة، والنّضج الّذي تنشأ عنه الفُحولة، ففي التَّعبير عن الوليدِ بالغُلام إشارةٌ إلى كمالِه في جِنسِه[1]، وإلى أنَّ له شأنًا حينَ يُصبِحُ غُلامًا معَه، وهي ما ستُبيِّنُه الآياتُ اللّاحقة، وفي التّعبير بلفظِ الغُلام إدماجٌ لبُشريَيْن في بُشرى واحِدةٍ؛ فالبُشرَى الأولَى أنّه سَيولَدُ، والبُشرَى الثّانيةُ أنّه سيَكبَرُ حتّى يَصيرَ غُلامًا بالِغًا[2].

بلاغةُ الكِنايةِ في الوَصفِ بالحِلْمِ:

الحِلمُ مَطلَب عَزيزٌ جامِعٌ بينَ أعالي الأخلاقِ وأرفَعِ الصِّفاتِ

وَصفُ الغُلام بأنّه ﴿حَلِيمٍ﴾ كِنايةٌ عن سَوائِه الخُلُقي، بعدَ الدّلالةِ على سَوائِه الخِلْقيّ بقولِه: (غُلام)؛ فَوصفُهُ بالحِلْم عبارةٌ عن سائِرِ مَناقِبِه وكرائِمِه الأخلاقيّةِ؛ لِأنّ الحِلمَ يَستلزِمُها، أو

(1) السَّمين، عُمدَةُ الحُفَّاظ: (غلم)، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 261.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلم).

لأنّ الحِلْمَ أجمَعُها. وفي وصفِه بالحِلْم إشارةٌ إلى أنّه سيُبْتَلَى، ثُمّ يكونُ حَمولًا في بلائِه، فَلا يَظهَرُ الحِلمُ إلّا في المَواقِفِ العَصيبةِ، والمَشاهِدِ الكَبيرةِ.

تَوجيهُ تخصيصِ صِفةِ الحِلْمِ بالذِّكْرِ:

مُجازاةُ الخَليلِ بالِابنِ الحَليمِ عِندَ الذّبحِ على مُعامَلةِ والِدِهِ بالحِلمِ عِندَ الدّعوةِ

جاءَ وصفُ الغُلامِ بأنّه ﴿حَلِيمٍ﴾ دونَ بقيّةِ الأوصافِ كالإيمانِ والصَّبرِ والعِلمِ والِانقيادِ والخُضوعِ، وذلكَ لِتَبشيرِ الخليلِ ﷺ بأنَّه ابنُه يُشابِهُه في حِلمِه، فإنّ الخَليلَ وُصِفَ بالحِلمِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 114]، ولَم يُشبِهْه فقطٌ في صِفةِ الحِلْمِ، بل أشبهَهُ في مُلابَساتِ تلكَ الصّفةِ، فإنّ اللّهَ وصَفَ إبراهيمَ بالحِلْمِ عَقِبَ مُجاراتِه لأبيهِ وصَبرِه مَعَه رَجاءَ أنْ يَهتديَ، ووصَفَ إسماعيلَ بالحِلمِ في مُجاراتِه لأبيهِ وصَبرِه معَه على أمرِ اللّهِ بالذّبحِ، فما ظَهَرَ حالُ الحِلمِ لإبراهيمَ بينَه وبينَ أبيهِ، فكذلكَ كان حِلْمُ إسماعيلَ بينَه وبينَ أبيهِ إبراهيمَ ﷺ، ويكأنّ اللّهَ جَزَى إبراهيمَ بِحلمِه مع أبيه، ولدًا صالحًا يَحلُمُ عليهِ ويُهوِّنُ عليهِ العزائمَ، كما كان إبراهيمُ تمامًا معَ أبيهِ هيّنًا ليّنًا غيرَ حادٍّ ولا شديدٍ، فنِعْمَ الشّبَهُ، ونِعْمَ الجَزاءُ، ونِعمتِ العِبْرةُ!

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فَعيل):

كـان إسماعيلُ ﷺ كثيرَ الحِلمِ ودائمَ الحِلمِ

جاء بناءُ صفةِ ﴿حَلِيمٍ﴾ على زِنَةِ (فعيل)، وهي صيغةُ مُبالَغة، بمعنى (كَثير الحِلْم)، أو صِفةٌ مُشبَّهة، بمعنى: (دائم الحلم) و(فَعيل) في المُبالَغةِ تدُلّ على تَكرارِ الفِعلِ واعتيادِه وإلْفِه، وفي الصِّفةِ المُشبّهةِ تَجري مَجرى الخُلُقِ الثّابتِ ثُبوتَ الطّبْعِ والجِبِلّة والعادة[1]، والآيةُ صريحةٌ في أنّ حِلْمَ هذا الغُلامِ قد خُلِقَ معَهُ، فقَد وُلِدَ جَميلَ الأخلاقِ، ولا مانِعَ مِن إرادةِ دَلالةِ المُبالَغةِ والصِّفةِ المُشبَّهةِ، فإنّ النّكاتِ لا تَتزاحَمُ.

(1) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 83، ص: 102.

نَوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرّابِطةُ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ هي الفَصيحةُ، عاطفةٌ مَدخولَها على مَحذوفٍ مُقدّر؛ أيْ: (فوُلِدَ له غلامٌ كما هو وعدُ البُشرَى، فكبِرَ وترعرَع في حِجْر أبيهِ، فلَمّا بلَغَ معَهُ السَّعيَ)[1]، والنّظْمُ يَطوي الأحداثَ لتَمحيضِ الكَلامِ بالمَقصودِ.

بُلوغُ السّعي يَستَلزِمُ صَلاحًا في الخِلْقةِ والخُلُق

مَعنى (لمّا) ودَلالتُها السّياقيّة:

(لمّا) في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ﴾ هي الحينيّةُ الشَّرطيّةُ غَيرُ الجازِمةِ، وهي تَستدعي فِعلَين ماضيَين؛ الأوّلُ فِعلُ الشَّرطِ والثّاني جوابُ الشَّرطِ، وتُفيدُ الظّرفيّة الزّمانيّة، ومعنى شَرطيّتِها موجَب: فهي أداةُ وجودٍ لوُجودٍ؛ أيْ: (وجود الجَوابِ لوُجود الشَّرطِ)، فهي تفيد تَحقُّقَ الجوابِ بتحقيقِ الشَّرطِ، ومعنى التّحقّق ظاهرٌ في مَجيء فَعلَي الشَّرطِ وجَوابِه ماضيَين، وهي ظَرفيّةٌ بمَعنَى (حين)، فحينَ وقعَ الشَّرطُ حصَلَ الجَواب، فحينُهُما واحِد، ولِذا جاءا ماضيَين، وليسَ معنى اتّحادِهما في الحين هُنا في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ أنّ الجوابَ حصَلَ بمُجرّدِ حُصولِ الشَّرطِ، فإبراهيمُ ﷺ لَم يَقصُص مَنامَهُ على إسماعيلَ بمُجرّدِ أنْ بلَغَ معَهُ السّعي، بلِ المُرادُ أنّه لمّا قصّ ذلكَ عليه، وافَقَ ذلك زمنَ بُلوغِه، فزَمانُ بُلوغِه السّعيَ زمانٌ مُمتَدٌّ، ومَنامُ إبراهيمَ ﷺ حصَلَ في فترةٍ منه، فيكونُ الجَوابُ واقعًا في زمانِ الشّرطِ؛ لأنّ الجَوابَ حصَلَ في قِطعةٍ مِنه[2].

البُـــلـــوغُ الـجُـسـمـانيُّ يُـنـــادي عـلى البُلوغِ النّفْسانيّ

نُكتةُ استِعمالِ أُسلوبِ الشَّرطِ:

جاء التَّركيبُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ﴾ على أُسلوبِ الشَّرطِ، ولَم يجئْ بالخَبرِ المَحضِ، كأنْ يقولَ: (وبلَغَ معَهُ

البلاءُ يُجاذِبُ أهلَه، فإمّا يُعالِجونَه بالصّبر، أو يُساكِنونَه بالضّجَر

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 199.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 627.

السّعيَ وقال له رأيتُ في مَنامي كذا)؛ لِأنّه تعيينٌ لتوقيتِ إعلامِ إبراهيمَ ولَدَه إسماعيلَ برُؤياهُ، بتعليقِه على حينِ بُلوغِه السّعيَ معه، فبالشّرطِ بان حرجُ ذلك التّوقيت، فتجلّتْ به خطورةُ ذلكَ المَوقِفِ بينَ الابنِ وأبيهِ، كأنّه بأُسلوبِ الشّرط أفادَنا بأنّ ذلكَ الإنباءَ بالمَنامِ حصَلَ في لحظةٍ فارقةٍ في عُمرِ الابنِ، وفارقةٍ في حياةِ الوالِدِ، وهي بُلوغُ سَعيِه، وهي اللّحظةُ الّتي يَزدادُ فيها تَمسُّكُ الوالِدِ بوَلَدِه، ويَتبادَلُ فيها كلٌّ مِنهُما الحِرصَ على الآخَرِ، ولولا تَجليةُ ذلكَ بأُسلوبِ الشّرطِ، ما اتّضَحَ مَكمَنُ الابتلاءِ وشِدّتُه وعُمقُه في تلك الحادثةِ.

بَراعةُ ذِكرِ ظَرفِ المَعيّة:

عِنـدَ شِـدّةِ الاقـتِرابِ تَـزدادُ لَوعةُ الفِراقِ

آثَرَ النّظمُ الكَريمُ ذِكرَ ظَرْفِ المَعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ﴾ فلَم يقل: (فلمّا بلَغَ السّعيَ قال)، بل قَيّدَ بُلوغَ إسماعيلَ السعيَ بكونِه معَ إبراهيمَ، وعِلّةُ ذلك بيانُ أنّ إسماعيلَ كان بحَضرةِ أبيهِ في حِجْرِه وحِضْنه، لمّا بلغَ السّعيَ، وأنّه إذْ بَلَغَ تلك السِّنّ، فقد بلَغَها على عيْنِ إبراهيمَ ورِعايتِه، وذلكَ أدعَى للشّفَقةِ على تضحيَتِه بوَلَدِه، وأعسَرُ على إبراهيمَ أن يُفرّطَ فيه وقد شَبّ على يدَيهِ وفي كنَفِه، فإنّه بقَدْرِ شدّةِ القُربِ تكونُ الفاجعةُ مِنَ الفِراق، وتعظُمُ الفاجِعة إذا كانت بيَدِ أحدِ القَريبينَ مُضطرًّا، فالمَعيّةُ المَذكورةُ شاهدةٌ على عظيمِ المُصابِ، وهَوْلِ الاختبارِ بذلكَ، والمَعيّةُ تُفيدُ شِدّةَ التعلُّقِ والانضمامِ من جِهةِ الولدِ بأبيهِ، فاستِشارةُ أبيه له في أن يذبَحَهُ مِن المُحطِّماتِ القاصِمةِ للوَلَدِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بفِعلِ ﴿بَلَغَ﴾:

أصعَبُ البَلاءِ ما حَضَرَ ساعةَ الحَصادِ

استِعمالُ لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ يدُلُّ على الانتهاءِ التّامِّ إلى الغايةِ، كأنّه قيلَ: انتَهى معَهُ إلى أن صارَ يسعَى، فلَفظُ: ﴿بَلَغَ﴾ يدُلّ على كمالِ إسماعيلَ في تلكَ السِّنّ، فيَجوزُ تقريرُ المَعنى على تقديرِ مُضافٍ؛ أيْ: (بلَغَ معَه كمالَ السّعيِ)، أو التّعبيرُ

بالمَصدرِ نفسِه يدلُّ على الكمالِ وقوّةِ التحقّق؛ أيْ: (بلغَ معَه السّعيَ الكاملَ الّذي يرضاهُ الأبُ لابنِه، فيَرفَعُ يدَه عنْه بعدَ بُلوغِه إيّاه اطمئنانًا عليه أنْ بلغَ سِنًّا يكونُ فيها الولَدُ ظَهيرًا لأبيهِ، ويكونُ بها الوالِدُ غيرَ مَضْنيٍّ على ابنِه).

نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّقِ الظّرفِ:

الحَذفُ يَكونُ للمَعلومِ من السّياقِ والمُؤيَّدِ مِن النّظمِ

ظَرفُ المَعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ حالٍ من فاعِلِ ﴿بَلَغَ﴾، وهو إسماعيلُ ﷺ؛ أيْ: (بلَغ السعيَ كائنًا معه)، وهو حالٌ على سبيلِ البَيانِ، كأنّ قائلًا قال: (معَ مَن بَلَغ السعيَ؟ فقيل: معَ أبيه). ولا يصِحُّ أن يتعلَّق بفعلِ ﴿بَلَغَ﴾؛ لاقتضائِه بُلوغَهُما معًا حدَّ السّعي؛ ولا معنى لذلكَ في حقّ إبراهيمَ ﷺ، ولا يتعلّق بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾؛ لأنّ متعلِّقَ المَصدرِ لا يتقدّمُ عليهِ. ومَن يَرى التوسّعَ في الظّروفِ، يَجعَل المَعيّةَ مُتعلِّقةً بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾[1].

نُكتةُ تقديمِ الظّرفِ:

قُدِّم الظرفُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ ولَم يقُل: (بلغَ السَّعيَ معَه)، وذلكَ للاختِصاصِ والعِنايةِ؛ أيْ: (بلغَ السّعيَ معَ أبيهِ خاصّةً، حالَ كونِه مُصاحِبًا له)[2].

نُكتةُ تخصيصِ إسماعيلَ بمَعيّةِ أبيهِ:

مَن وجدَ الخليلَ استغنَى بصُحبَتِه عن صُحبةِ مَن سِواه

خَصّ السّياقُ ذِكرَ مَعيّةِ إسماعيلَ لأبيهِ دونَ غَيرِه في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾؛ وذلك لأنّ الأبَ أكمَلُ في الرّفقِ والاستِصلاحِ له، فلا يَطلُبُ مِنه السّعيَ قبلَ أوانِه، أو لأنّه استَوهَبَه من اللهِ؛ لأجْلِ أنْ يتَقوّى بِه، ويكونَ سببًا في استبقائِه، لا في زوالِه، ولا يكونُ ذلكَ إلّا ببُلوغِه السّعيَ معَه، فحتّى يرَى إبراهيمُ ولدَه ساعيًا، لا بُدّ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 7/ 279، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 162.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263.

أن يكونَ معَه مُصاحِبًا له قبلَ ذلك[1]. وللدّلالةِ على تَبَعيّتِه لأبيهِ؛ لأنّه ليس صغيرًا، قد مكَثَ في مكانِه، وليسَ كبيرًا انفرَدَ بنفسِه، فالصّغيرُ الّذي في المَهدِ لا يَبلُغُ السَّعيَ معَ أبيهِ، والكبيرُ الّذي انفَردَ يبلُغُ السَّعيَ لا معَ أبيهِ؛ لأنّه مُنفرِد، أمّا هذا فقد بَلَغَ مع أبيهِ السّعيَ، وكان مُلازِمًا له، وهذا أشدُّ ما يكونُ الأبُ تعلُّقًا بابنِهِ إذا كان في مِثْل هذهِ السِّنّ؛ لأنّ الصّغيرَ الّذي في المَهدِ لا تتعلّقُ به النّفسُ، والكبيرَ الّذي انفَردَ - كذلك - لا تتعلّقُ به النّفْسُ، إنّما تَتعلّقُ بمَن كانَ في مِثْل هذه السِّنّ، وهذهِ مِن حِكمةِ النّظمِ في أسلوبِه؛ ليَتبيّن كيفَ أنِ ابتُلي إبراهيمُ ﷺ عليهِ بهذا البلاءِ المُبين[2].

معنى(ال) في لفظِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ لحَقيقةِ الجِنسِ وماهيَّتِه، فهيَ تستَوعِبُ خصائصَ تلكَ المَرحلةِ في الجاهزيّةِ على الكَسْب، وانتِفاءِ الاعتماديّةِ على الغَير.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ كنايةً عن الجِدّ في الأمر؛ لأنَّ السّعيَ هو الحَركةُ الحَثيثةُ إلى الغاية، والمَشيُ السَّريعُ إلى الهدَفِ، وغلَبَ استعمالُه في المَحمودِ مِن الأفعالِ؛ فعَبّر بالسّعيِ هُنا؛ ليدُلّ بهِ معَ لفظةِ ﴿بَلَغَ﴾ إلى إدراكِه ما سَعَى في طلَبِه، فكأنّه يقولُ: (أتاهُ في سِنِّ الظَّفَرِ والتمكّنِ وزهرةِ العُمُر، فجاءَه بخَبرِ الموتِ وانتزاعِ الحَياة)، فلا يَخفَى ما في اللَّفظِ بمَضمونِه الدّالِّ على الحَركةِ والحَيويّةِ، مِن التّهويلِ لشأنِ الرُّؤيا الّتي رآها الخَليلُ لوَلدِه، والّتي تتضادّ تمامَ التَّضادِّ معَ تلكَ المَرحلةِ المُفْعَمَة المُزدَهِرةِ، فتُقابَل بالاجتثاثِ والتّعطيلِ والخُمودِ والإماتة[3].

السّعيُ هو سِنّ الجاهزيّةِ والحركةُ الحثيثةُ لتحقيقِ الغايةِ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 295.
(2) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 225.
(3) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ: (سعى، سعي).

مَوقِعُ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، جوابُ الشَّرطِ غيرِ الجازِم في قولِه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾، والجُملةُ النّدائيّةُ: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ مقولُ القَولِ، وجُملةُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ جوابُ النّداء[1].

دلالةُ النّداء:

النّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ واردٌ على جِهةِ الحقيقةِ، لِقَصدِ طلَبِ الإقبالِ عليه بخُصوصِ أمْرِ المَنامِ.

دَلالةُ تصغيرِ لَفظِ ابن:

إنّما نادَى الخليلُ ﷺ ابنَه بلفظِ التّصغيرِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تحنُّنًا إليه، وإقبالًا بالشّفَقة عليه، وتلطّفًا به، واستدعاءً لإقبالِه على مُرادِ أبيهِ منه، بوازِعٍ من الرّضا، فأبوه حينَ يقولُ له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتّصغيرِ، فكأنّه يقولُ له: (يا صغيري) فيَستَرضيه ويَتَودّدُ إليه بذلك النّداء؛ ليَستخرِجَ منه الرّضا وعدمَ الجزَعِ وعدَمَ النُّفورِ لِما سيُلقيه عليهِ من أمْرِ الرُّؤيا، وهي تَوطِئةٌ للأمرِ العَظيمِ الّذي سيُذكَرُ بعدَ ذلكَ، فهو تحنُّنٌ وتلطُّفٌ لِما سَيَقولُه من الرُّؤيا الّتي تأمُرُه بالذّبحِ.

التّحبُّبُ والتّلطُّفُ للوُصولِ إلى الأمرِ العَظيمِ يَحتاجُ إلى الصّبرِ العظيمِ

بلاغةُ التّوكيدِ في جُملةِ جَوابِ النّداء:

صُدِّرت جُملةُ جَوابِ النّداءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾؛ ليدُلّ به على أنّ مَضمونَه يقينٌ وحقٌّ لا التِباسَ فيه، لا لإنكارِه بل لتوطينِ النّفس بِما رأى، وتحقيقِ الحَقّ بتنفيذِ المَطلوبِ.

نوعُ ﴿أَرَىٰ﴾ ومعناها:

فِعلُ ﴿أَرَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ﴾ من (رأى) المَناميّةِ، وهي (الرُّؤيا)، وهي تتعدَّى لمَفعولَين، وجُملةُ ﴿أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ مِن (أنّ واسمِها وخَبرِها) سدّت مَسَدّ مفعولَين[2].

(1) صافي، الجدول: 12/ 75.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 12، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 294.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ شِبهُ الجُملةِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ﴾ ولَم يقُل: (إنّي أرى أنّي أذبحُكَ في المَنام)؛ لإفادةِ الاختِصاصِ والقَصرِ، فقدَّم ﴿فِي ٱلْمَنَامِ﴾ عِنايةً به، وقَطعًا لاحتِمالِ الرُّؤيةِ في اليقَظةِ؛ أيْ: (ذلك الّذي رأيتُه هو حاصِلٌ في المنامِ فقطْ، لا في غَيرِه)، ولتَعيين أنّها وحيٌ من اللّهِ تعالى، ولا بدّ مِنَ الامتِثالِ.

الامتثالُ لرُؤيا المَنامِ امتِثالٌ لأمرِ ذي الجلالِ

نُكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلْمَنَامِ﴾:

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ استِعمالَ مُفرَدةِ ﴿ٱلْمَنَامِ﴾؛ للتَّصريحِ بفِعلِ الرُّؤيا في النّظْم، وهو قولُه تعالى: ﴿أَرَىٰ﴾، فكأنّه قيل: (أرى رُؤيا في المَنام)، ولذلك لم تأتِ في القرآنِ (الرُّؤيا) مع الفعلِ (أرى)؛ لأنّ (الرؤيا) اسمٌ لِما يَراهُ النّائم، فلَفظُ (الرُّؤيا) يدُلّ على الحُدوثِ الفِعليِّ وهو (أرى)، والفِعلُ (أرى) يدُلّ على المَرئيّ وهو (الرُّؤيا)، فيكونُ اقترانُهما تَكرارًا لا معنى له. وأمّا ذِكر ﴿ٱلْمَنَامِ﴾ هُنا، فلا بدّ منه؛ لأنّ المنامَ هو مَوضِعُ الرُّؤيا، وزمانُها، فهو بَيانٌ لمَحَلّ وُقوعِ الفِعلِ ﴿أَرَىٰ﴾، واحترازٌ عن أنْ يكونَ مِن رُؤيةِ اليقَظةِ، فلا بدّ من ذِكر ﴿ٱلْمَنَامِ﴾؛ لبَيانِ أنّ الرُّؤيةَ هي رُؤيةُ النّوم، لا رُؤيةُ الصّحوةِ، وبه يتَعيّن أنّها وحيٌ.

لَـم يـأتِ لفظُ (الرُّؤيا) معَ فِعلِ (أرى) في القرآنِ

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿أَرَىٰ﴾، و﴿أَذْبَحُكَ﴾:

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ﴾، وقولِه: ﴿أَذْبَحُكَ﴾؛ ليدُلّ على استمرارِ حُكمِ هذهِ الرُّؤية، فالمُضارِعُ ﴿أَرَىٰ﴾ أبلَغُ مِن (رأيتُ)؛ لأنّ (رأيتُ) شيءٌ مَضَى، أمّا هذا فهو شيءٌ حاضِرٌ يدلُّ على الاستمرارِ، وأنّه سيُنفِّذ حُكْمَ ما رأى؛ ليُبيّن أنّه مُستمرٌّ على تنفيذِ حُكْمِ هذهِ الرّؤيا، وأنّ الرؤيا تُراوِدُه ليُنفِّذَها، أو قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، استحضارًا للصّورةِ الماضيةِ وهي تَحدُثُ، وتنزيلًا لها مَنزِلةَ الحالِ، كأنّه الآنَ يَرى أنّه يتلبّسُ بفِعلِ الذّبحِ وهو يُباشِرُه[1].

مِن أدَبِ العَبدِ اعتِبارُ الأمرِ التّكليفيِّ مُضارِعًا جاريًا حتّى يَقضيَهُ ويُؤدّيَه

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 227.

نُكتةُ التّوكيد:

توكيدُ المُستَبعَدِ ليَسوغَ في الأذهانِ ويَقوَى في الأركانِ

صُدّرتْ جُملةُ ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ بتوكيدِ مضمونِها؛ لأنّه مضمونٌ مستبْعَدٌ في العادةِ، فأكّدَه؛ ليَسوغَ في الأذهانِ أن تتوقّعَهُ وتَستجيزَه، فتَنتَقِل بذلكَ التّوكيدِ إلى حَدّ التّصديقِ والقَبولِ التّامِّ الّذي يَصونُ الإيمانَ، ويُثبِّتُ القُلوبَ[1]، والمقصودُ بالتّوكيدِ هو وابنُه، وذلكَ لتثبيتِ الأمرِ وتَقويَتِه في النّفْسِ، لا لِدَفعِ إنكارِه، فإنّ الإنسانَ يُؤكِّد لنَفسِه بغَرضِ تقويةِ الإقدامِ.

نَوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

اعتمادُ مَبدأِ التّخييرِ للمُخاطَبِ للوُقوفِ على مَحاسِنِ الاختيارِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فَصيحةٌ؛ أيْ: (ففكِّر في الأمرِ، فانظُرْ ماذا تَرى)، أو (إذا عَلِمتَ هذا فانظُرْ ماذا تَرى)، أو لِتفريعِ النّظَرِ على حِكايتِه الرُّؤيا له، كأنّه قيلَ: (ذلك ما رأيتُه، فانظُر ماذا تَرى)[2].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ النّظَر:

تَنزيلُ نَظَرِ العَقلِ مَنزِلةَ نَظَرِ العَينِ استِعارةٌ تَصريحيّةٌ

النّظَرُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ نظرُ العقلِ والاختيارِ، لا نظَرُ العَينِ والإبصارِ، فحَقُّه أن يتعَدّى إلى مَفعولَين، ولكِنْ علَّقَه الاستِفهامُ عنِ العَمل[3]. ويصِحُّ أن يُرادَ نظَرُ العَينِ على الاستِعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ بغَرضِ المُبالَغةِ، بتَنزيلِ نظَرِ العَقلِ مَنزِلةَ نظَرِ العَينِ مُبالَغةً في خَطرِ الأمرِ الّذي طُلِبَ منه التفكّرُ فيه، كأنّما صار عقلُه عيْنًا تُحدِّقُ فيما يواجِهُها من المُشاهَداتِ المَحسوسةِ؛ لتَستبينَ بُؤرةَ جَوهرِه وحقيقتَه. ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِن شِدّة امتزاجِ الحِرصِ المَسؤولِ الشّاقِّ معَ الإشفاقِ الوجِلِ الأسيفِ.

نوعُ الرُّؤيةِ ومعناها:

فِعلُ الرُّؤيةِ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ هي رُؤيةُ الاعتِقادِ والجَزمِ؛

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 151، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 151.

أيْ: (ما الّذي تَعتَقِدُه وتَجزِمُ به، فهي من (الرّأي)، كأنّه قالَ له: (ما الرّأي الَّذي تَرَتَئِيه). فليسَ ذلك من رُؤيةِ العَينِ المُتَعَدّيةِ إلى مفعولٍ واحِد، ولا رُؤيةِ القَلبِ المُتعدّيةِ إلى مفعولَين، بل هذا رأيُ الفِكْرةِ المُعتَنَقَةِ اعتناقَ الدّينِ والعقيدةِ، وهذا المَعنى في الرُّؤيةِ بديعُ المُناسَبةِ في سياقِه؛ لأنّ إبراهيمَ ﷺ يستَخرِجُ مِنه رأيًا في شأنٍ عقيديٍّ وامتحانٍ إلهيّ، فهو من تكاليفِ الدّينِ والاعتقادِ، وليسَ أدلّ على ذلك من صَيرورةِ تلكَ المِحنةِ إلى شَعيرةٍ ونُسُك[1]، وهو ما يُشير إلى أنّ التّكليفَ والابتلاءَ كان لإبراهيمَ ﷺ، كما سيأتي مَزيدُ بيانٍ لهذا الأمْرِ.

رُؤيةُ الاعتقادِ والاعتناقِ تتعدّى إلى مَفعولٍ واحِد

تَوجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

اختلفَ القرّاءُ في قولِه تعالى: ﴿تَرَىٰ﴾؛ فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ بضَمِّ التّاءِ وكَسرِ الرّاءِ فيَصيرُ بعدَها ياءٌ: ﴿تُرِي﴾، على حذفِ المَفعولَين؛ أيْ: (تُريني مِن صَبرِكَ أو جَزَعِك، أو تُريني إيّاهُ مِن صَبرِكَ واحتمالِكَ)، فيَصِحّ على هذا المَعنى أنْ تكونَ رُؤيةً بصَريّةً؛ لأنّ الصَّبرَ والجَزَع تَظهَرُ آثارُه، فيُطَّلَعُ على هذهِ الآثارِ بالأنظارِ والأبصارِ[2]، ويصِحُّ تقديرُ المَعنى: (فانظُر ماذا تُري نفْسَك مِن الخَيرِ بالامتِثالِ، أو الشّرّ بالرّدّ) وعلى ذلك: يكونُ الفعلُ ﴿تُرِي﴾ مِن الإراءةِ القَلبيّةِ، وقراءةُ الجُمهورِ ﴿تَرَىٰ﴾ مِن رُؤيةِ الاعتقادِ، والقِراءتانِ مُتكامِلتانِ، فالرُّؤيا بجَميعِ مَعانيها مُتحقِّقةٌ في السّياقِ.

رُؤيةُ الاعتقادِ والعِلمِ والبَصرِ تَجتَمِعُ في سياقٍ واحِدٍ

غَرَضُ الاستفهامِ ودَلالتُه:

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ تَقريريٌّ استِنطاقيٌّ، فالقَصدُ مِنهُ استِنطاقُ إسماعيلَ ﷺ، ليَظهَرَ مَوقِفُه، بالامتِثالِ، فيُحَيَّى ويَكونَ مَثَلًا يُحتذَى، أو بالتّردُّدِ والجَزَعِ، فيُعانَ ويُؤازَرَ تَعليمًا له وربْطًا على قلبِه، أو بالقَبولِ والرّضا[3].

الاستِجهازُ للعَظائِمِ يُخفِّفُ الاستِيحاشَ مِنها عِندَ مُلاقاتِها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 481.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357، والفرّاء، معاني القرآن: 2/ 390، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 322.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 15.

بلاغةُ الاستِئنافِ البيانيّ:

حِلمُ الوَلدِ معَ أبيهِ مُكافَأةٌ مُنجَزةٌ وجائزةٌ مُخلَفةٌ

جُملةُ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ ناشئٍ عن الجُملةِ السّابقةِ: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، كأنّ قائلًا قال: (فبِماذا أجابَه؟) فقيلَ: (أجابَ أباه بضَربٍ مِن التَّوقيرِ والتَّفويضِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾)[1].

مَعنى التّاءِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

التخفّفُ والتلطُّفُ في خِطابِ الوالِدِ تأسٍّ بخِطابِ الوالِدِ

التّاءُ في لَفظِ المُنادَى (أبتِ) عِوَضٌ عن ياءِ الإضافةِ، والتَّعويضُ يُفيدُ التوقيرَ والتَّفويضَ، وهو هُنا كَرَدّ التَّحيّة بمثلِها، فإنّه لمّا قال له ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتَّصغير الدّالِّ على الإشفاقِ والمَرحَمةِ، أجابَهُ بمِثْل ذلكَ فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إظهارًا للحِلْم، وإفراحًا لنفْسِ أبيهِ، تَرويحًا عنه وتَخفيفًا، كأنّه يقولُ له: (لا تَحزَن ولا تَكتَرِثْ يا أبتِ فلنْ تَجِدَ مَنّي إلّا خيرًا)، كأنّ تلك التّاء المُؤنّثةَ الّتي استُعيضَ بها عن ياءِ الإضافةِ في (يا أبي) تُساقُ لقَصدِ التّخفيفِ على المُخاطَب فيما تُستَثْقَل تَبِعاتُه، والتّخفُّفُ يُناسِبُه مَعنَى التَّأنيثِ في التّاء، أو لِقَصدِ توقيرِ المُخاطَبِ توقيرًا يُخالِطُهُ السّكينةُ والترفُّقُ، ولا يَخفَى أنّ ابتِداءَ المُخاطَبِ بما يُفيدُ التَّوقيرَ والإجلالَ مِن المَعاني الّتي تَفترِح نفسُه بها، فتَكتسِبُ نفسُه من ذلك سرورًا وتَهيّؤًا وانشراحًا يؤذِنُ بالخِفّةِ والتَّخلّص من العَنَت، فيؤدّي معنى تلكَ التّاءِ إلى التَّخفيفِ لفظًا ومعنى[2].

غَرَضُ فِعلِ الأمرِ ﴿ٱفۡعَلۡ﴾:

الأمرُ ليسَ للأمْرِ الصّريحِ بلْ لِلإذنِ الفَصيحِ

الأمرُ بالفِعلِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ كنايةٌ عن الإذْنِ في إمضاءِ العَزمِ، وعَبّر بمادّة الفِعل؛ ليدُلّ به على أصْلِ الإحداثِ الّذي يَستَلزِم الأداءَ أو التَّنفيذَ الجادَّ الّذي لا فُتورَ ولا تَساهُلَ فيه[3].

(1) صافي، الجدول: 12/ 75.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 6/ 432، وجلال المحلّيّ، الجلالين، ص: 593.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فعل).

كأنّه يقولُ له: (أنجِز مِن غَيرِ تَوانٍ)، وهو ليسَ للأمرِ الصَّريحِ بل للإذنِ الفَصيحِ.

نوعُ ﴿مَا﴾ وأثرُه في بلاغةِ الصِّلةِ:

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ؛ أي: (الّذي تُؤمَرُه، أو الّذي تُؤمَرُ به)، وتَحتَمِلُ أن تكونَ مَصدريّةً؛ أي: (افعَل أمْرَك)، والمُرادُ بالمَصدرِ (أمْرك) المأمورُ به، تَجَوُّزًا في إسنادِ المصدرِ المُؤوَّلِ إلى ضَميرِ المَأمورِ وهو إبراهيمُ عليه السلام، والمُرادُ: المَأمورُ بِهِ وهو الذّبحُ، فأسنَدَ الفعلَ المَبنيَّ للمَفعولِ وهو ﴿تُؤْمَرُ﴾ إلى ضميرِ إبراهيمَ مَجازًا، إذْ أصلُ إسنادِه إلى الجارّ والمَجرورِ؛ أيْ: (ما تُؤمَرُ به)؛ إذِ الفعلُ في قولِه ﴿ٱفْعَلْ﴾ يُرادُ به المأمورُ به، لا المأمورُ، لكنْ توسِّعَ فيه وأُسنِدَ إلى المأمورِ معَ الحَذفِ والإيصالِ، كما في وجْهِ الموصوليّة[1].

الإيجازُ في التّعبيرِ مُناسِبٌ للمَشهَدِ وسُرعةِ الاختيارِ

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ:

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ لاستمرارِ جَرَيانِ ذلك الأمْرِ في ذِمّتِه، فما زالَ مُستقِرًّا في ذِمّتِه، لَم تَبرَأ منه بَعدُ، فيُرتقَبُ إنفاذُه، وما كانَ كذلكَ، فإنّه ما يَزالُ مطلوبًا منه مأمورًا به، حتّى يعمَلَه، ولذلكَ عَبّر بالمُضارِعِ إشارةً إلى ثُبوتِه في الذِّمّةِ واستمرارِه في تعلُّقِه بها. وفي المُضارَعةِ إلفاتٌ إلى تجدّد التّلقّي عنِ اللّه، فما دامَ إبراهيمُ حيًّا، فإنّه ما يَزالُ يُؤمَر في هذا وفي غيرِه؛ لأنّ الوحيَ لا يُفارِقُه، وما دامَ كذلكَ فإنّه سَيستَمِرّ على أنْ يأمُرَه ويُكلّفَه.

الأمرُ التّكليفيّ استقباليّ في معناهُ والوَحيُ مُستمِرٌّ في نُزولِه

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ الفِعلِ دونَ الذَّبحِ:

عدَلَ النَّظمُ القرآنيّ عنِ استعمالِ الفعلِ الواضحِ المَذكورِ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ فلَمْ يَقُل: (اِذبَحْني) ليُطابِقَ

عِلّةُ الاستجابةِ لأمرِ الذّبحِ في كَونِه عنِ اللهِ صَدَر

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 298.

ما قالَه الخَليلُ، بل عدَل إلى العُمومِ في الجَوابِ، فقال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؛ لتَبيينِ عِلَّةِ استجابتِه لأبيه، وهو كونُ ذلكَ أمْرًا مِن اللّهِ، ولولا أنّه أمْرُ اللّهِ، ما وافَقَ ولا أذِنَ؛ أيْ: (فافْعَلْ هذا وغَيرَه مِمّا جاءَ به الأمْرُ دونَ تَوانٍ أو تردُّد).

بلاغةُ أُسلوبِ الحَكيمِ:

جَوابُ إسماعيلَ جاءَ عامًّا ليَشمَلَ الذّبحَ وغَيرَه

قَولُ إسماعيلَ عليه السلام: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، هوَ مِن أُسلوبِ الحَكيمِ في التَّوسُّعِ في الجَوابِ، فيُجيبُ بأكثَرَ مِمّا أرادَ السّائِلُ؛ لإضافةِ فائدةٍ، أو لتأكيدِ مُرادِ السّائِلِ بضَربٍ مِن المُبالَغة، بإجابةِ الحَكيمِ الّذي يَجعَلُ الجَوابَ مبنيًّا على الحِكمةِ، الّتي تكونُ أوسَعَ من مَنطوقِ السُّؤالِ، فإنّ قولَه: (اذبَحْني) هذا تفويضٌ خاصٌّ، وأمّا قولُه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، فهذا تفويضٌ عامٌّ، يتضَمّن الذَّبحَ وما زادَ عليه، كأنّه يَقولُ له: (افعَلِ الذّبحَ وما هو أكثَرُ مِن الذَّبحِ ما دامَ اللّهُ يأمُرُك به). ولا يَخفَى ما فيه مِن الإشارةِ إلى حُسنِ تربيَتِه، وكَمالِ عَقيدتِه، وتمامِ إذعانِه للّهِ في كلِّ شأنٍ. وفيهِ إضافةُ معنًى جليلٍ: وهو أنّه حينَ يَستجيبُ إنّما يَستجيبُ للّهِ تعالى، لا لأبيه، أو لمُجرّدِ ذلك[1].

مَوقِعُ جُملةِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

جُملةُ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليليّةٌ للطَّلَبِ في قولِه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، أو استئنافٌ بيانيٌّ نشَأ عنه[2]، كأنَّ سائِلًا قد سألَ: وماذا قالَ بعدَ الإذنِ؟.

مَعنَى السّينِ في: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

استجابةُ المؤمنِ سريعةٌ غيرُ مُتراخيةٍ

السّينُ في قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ لتأكيدِ وُقوعِ الفِعلِ في المُستقبَلِ. معَ إفادةِ قَصدِ القُربِ في إتيانِ الفِعلِ، ولذلكَ لَم يقُل: (سوفَ تَجدُني)؛ أيْ: (تلقَى وعدي لكَ بالصَّبرِ قَريبًا جدًّا مِنْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 124، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 152.
(2) صافي، الجدول: 12/ 75.

بِدارِك إليّ بأمْر اللّهِ تعالى، بل ستَجِدُني الآنَ وفي أيِّ وقتٍ صابِرًا خاضِعًا لأمرِ اللّهِ تعالى).

نُكتةُ تقديمِ المَشيئةِ:

الأمْرُ في اعتِقادِ الكُمَّلِ كلُّه للهِ تعالَى

قُدِّم ذِكرُ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلَمْ يَقُل: (ستَجِدُني صابرًا إنْ شاءَ اللّه)، فوسَّطَ المَشيئةَ بينَ وعدِه بالوجدانِ، وعَملِه بالصّبر؛ تقديمًا للنيّة، فإنّ النّيّةَ مضمونةٌ، وتعليقُ النّيّةِ على المَشيئةِ فيه نَوعُ ارتيابٍ في القَصدِ، ولذلكَ أخَّرَ المَشيئةَ بعدَ فِعلِ ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾؛ لأنّهُ مِن أفعالِ اليَقينِ، واليَقينُ عِبارةٌ عن تَحقُّقِ النّيّةِ، فلا بُدّ أن تأتيَ على الجَزْمِ، بلا احتِمالِ أيِّ تردُّدٍ، وقدَّمَ المَشيئةَ على العَملِ، وهو كونُه صابرًا؛ لعدَمِ ضمانِ العَملِ إلّا بالمَشيئةِ، فقد تَطرَأُ الحَوائِلُ، فلا تُنَفَّذ النّيّة، ولا يَحدُثُ العَملُ، فأرادَ ﷻ ألّا يقطَعَ في المستقبَلاتِ؛ لِما يعلَمُه مِن قُدرةِ اللّهِ على نقْضِ العزائِمِ؛ بالحَيلولةِ بينَ المَرءِ وقَلبِه، وهذا دَأْبُ الكُمّلِ المُصلِحينَ، معَ ما في تقديمِ المَشيئةِ مِن المُحافَظةِ على الفاصِلة[1].

نُكتةُ الجَمعِ دونَ الإفرادِ:

الانضِمامُ إلى جَماعةِ الصّابِرينَ أمكَنُ في الثُّبوتِ وأرسَخُ في التّواضُعِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استِعمالَ الجَمعِ دونَ الإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولَم يَقُل: (سَتَجِدُني إن شاءَ اللّهُ صابرًا)؛ وذلكَ لأنّ ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمْكَنُ في الفاصِلةِ. و(صابرًا) أقلُّ رُتبةً في تحقيقِ الصَّبرِ مِن قولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ الانتِظامَ في فريقِ الصّابرينَ، يدُلّ على أنّه مُتحَقّقٌ بالصَّبرِ، فـ(ال) في ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تُفيدُ الكمالَ في الوصفِ؛ أي: (العريقينَ في الصّبرِ؛ البالِغين فيه حَدَّ النِّهايةِ)[2]، وأنّه منتظِمٌ في مجموعِ الصّابِرينَ، ومَن كانتْ نِسبتُه إلى الجماعةِ، كانَ عَزْمُه أشَدّ، وهو

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 265.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 265.

في مَقام الوَعدِ، فعَبّر بِما هو إلى الضّمانِ أقربُ، وهو أن يكونَ ضِمنَ الجَماعةِ، لا يكونُ فردًا، فالفَردُ لا يُؤمَنُ تَغيُّره إنْ كانَ وحدَه، وفيهِ إشارةٌ إلى أنّ أخلاقَ هذا البَيتِ أخلاقُ أمّةٍ وجماعةٍ، فإبراهيمُ عليه السلام كانَ أمّة، وكذلك هو؛ أيْ: إسماعيلُ عليه السلام، كان أمّةً في الصّبر، فكان صبْرُه صبْرَ جماعةٍ. فلَعلّ جَعْلَهُ نفْسَهُ مِن الصّابِرينَ، يُشيرُ إلى اجتِماعِ أخلاقِ أمّةِ الصَّبرِ فيه، وإلى اعتِصامِه بمَنهَجِ الجَماعةِ، لا الفَرْدانيّةِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»